

VOLUME 5, AUGUST, 2012

الإشراق

الإشراق

مجلة الدراسات العربية والإسلامية

AL-ISHRĀQ

JOURNAL OF ARABIC AND ISLAMIC STUDIES

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria



A PUBLICATION OF THE ARABIC AND ISLAMIC STUDIES UNITS

Nasarawa State University, Keffi, Nigeria

ISSN: 2006-6554

4. Diop, A.D. (2012): الهجاء الاجتماعي والشخصي في شعر البارودي: عرض ودراسة (A Social and personal Satire in Baruudi's Poetry). *AL-ISHRAQ Journal of Arabic and Islamic Studies*. 15; 72-90. Published by Nasarawa State University, Keffi, Nigeria.

الهجاء الاجتماعي والشخصي في شعر البارودي: عرض ودراسة

إعداد/

أحمد دام جوب

المقدمة :

شهد البارودي في مجتمعه تصرفات سيئة كانت تصدر من أفراد ومجموعات، وكان يتضرر بها كما كان يتضرر بها الشعب المصري، وكان يستنكر بها، ويرى أنّ الهجاء الاستنكاري ضرب من الإرشاد والتوجيه الذي يكشف ستار تلك التصرفات السيئة والأخلاق المنكرة ليحذر من يرتكب بها ويتعظ، وكان البارودي حريصاً بهذا الفن لأصلاح العيوب وليس لأساءة فرد أو قبيلة لتتقيص القدر أو الشأن كما هو مشهور لدى شعراء الهجاء المقذع الذين يتخذونه وسيلة للإفساد والظلم، وكان إنجاء البارودي يختلف كل الاختلاف عن أولئك الشعراء. ولهذا ابتكر أسلوب الهجاء الاجتماعي والشخصي⁽¹⁾ لستنكر بمها التصرفات السيئة التي تصدر من بعض الأفراد أو المجموعة في المجتمع من غير النظر إلى القبيلة التي ينتمون إليها.

تهدف هذه المقالة إلى الإظهار أنّ الهجاء لا يتوقف على العصبية القبلية أو إساءة الفرد أو المجموعة من غير الذنب أو التصرف السيء، بل يمكن أن يكون وسيلة من وسائل استنكار الأخلاق السيئة والتصرفات المكروهة التي تصدر من بعض الأفراد المعينين أو المجموعة في المجتمع، يكون هجاءهم معولاً لهدم مواقفهم وتغيير سلوكهم السلبي إلى الإيجابي. ويمكن اعتبار الهجاء الشخصي والاجتماعي من وظائف الأدب وأفكاره وقيمه، ولهذا لم يغفل عنهما رائد مدرسة إحياء الأدب، وذكر الشيء دعوة إليه. ولتحقيق هذا الهدف قسمت المقالة إلى المقدمة والتعريف بالهجاء وذكر أمثلة للهجاء قبل العصر البارودي، والبارودي في سطور، والهجاء الاجتماعي، والهجاء الشخصي، والخاتمة والخلاصة.

التعريف بالهجاء:

الهجاء هو الشتم والتنقيص بالشعر أو بالنثر، وهو ضد المدح⁽²⁾ وقد استخدم به الشعراء للتعبير عن عاطفة السخط والتهكم والسخرية تجاه بعض الأفراد أو القبيلة لقصد تقليل شأنهم أو إحباط

شخصيتهم ، ومن أجل ذلك يبحثون عيوباً ونقائص ثم يلحقونها بالمهجووين دون الذنب ، ولا شك أن مثل هذا النوع من الهجاء ظلم وفسق قد نهى الله عنه بقوله : (ولا تنازعوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان...) (11) الحجرات ، وأما الهجاء الذي يقصد به استنكار التصرفات السيئة والأخلاق الذمومة فهو ممدوح و يعتبر إرشاداً وتوجيهاً.

يقول البارودي :

هجوته لا بالغالومة لكنني كفكفت من غربه
فإن أكن قد نلت من عرضه فما نني دنست شعري به
فلا يلومن سوى نفسه من سلط الناس على ثلبه⁽³⁾

أمثلة للهجاء قبل العصر البارودي:

عرف الهجاء في الأدب العربي منذ نشأته وأثناء تطوره ، ففي العصر الجاهلي نجد طرفة بن العبد يهجو عمرو بن هند وأخاه قابوس بقصيدة منها قوله:

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوئاحول قبتنا تخور
لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كبير⁽⁴⁾

ويبدو أن هذا الهجاء يقصد به الشاعر التهكم والسخرية وليس لوماً ولا إرشاداً بل يتمنى زوال ملك عمرو بن هند، وهذه الخصلة من خصال الحسد ، وكان هذا اللون من الهجاء حافلاً في الجاهلية بسبب انتشار التعصب القبلي ، وفي العصر الإسلامي نجد بعض الشعراء الذين لا يلتزمون بتعاليم الإسلام يمارسون الهجاء الظالم ، ففي زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، نجد أنه أهدر دماء بعض الشعراء لسوء هجاءهم عليه، أمثال كعب بن زهير الذي

تاب ثم مدح الرسول بقصيدة رائعة ، ورأينا أيضاً أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أمر حسان بن ثابت أن يردّ من يهجو أو يهجو المسلمين ، وقد ردّ على بني عبد المطلب بقصيدة منها قوله:

لابأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال واحلام العصافر⁽⁵⁾

كان حسان يرشد بني عبد المدان إلى التفاخر بالعقل لابطحامة الجسم وطوله، فالشاعر لم يلحق بهم سوء بل ذكر لهم عيوبهم ليعتبروا ، ونجده أيضا يهجو الحارث بن هشام لفراره في يوم بدر وترك أخيه أبي جهل يقتل بقوله وهو يخاطب أهله:

إن كنت كاذبة الذي حدثني فنحوت منحي الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ونجا برأس طمرة ولجام⁽⁶⁾
نجد الخطيئة في زمن الخلفاء الراشدين يكثر الهجاء المقذع الظالم ، فقد هجا الزريقان بن بدر وقبيلته
تميم بعد أن يس من نيل عطائهم بقوله:

لما بدا لي منكم عيب أنفسكم ولم أجد لجراحي منكم آسى
أزمت يأسا مبينا من نوالكم ولن ترى طاردا للحر كالْيأس
سيرى أمام فإن الأكرمين أبا والأكثرين حصي من آل شماس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فمن يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس⁽⁷⁾
فقد ألحق به البخل والضعف والجبن ، وهى صفات سيئة، يبدو أن الزريقان لم يكن متصفا بها بل هجاء الخطيئة ليشفي ما في نفسه من عقد لأنه لم يجد منهم ما كان يتمناه منه.
نجد الهجاء في عصر بني أمية ذو جناحين أولهما العصبية القبلية التي بعثتها بنو أمية، و الثاني بين الأحزاب السياسية التي قدرت على الأمة، وهذا الكميت يهجو بني أمية قائلا:

فتلك ملوك السوء قد طال عهدهم فحتما حتما العناء المطول
لهم كل عام بدعة يحد ثونها أزلوا بها أتباعهم ثم أوجلوا
تحلّ دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل⁽⁸⁾
نرى الكميت في هذه الأبيات يوجه إتهامات لاذعة إلى ملوك بني أمية عامة ، من غير استثناء وذلك لتقليل شأنهم و هتك أعراضهم ، ولفت أنظار الناس لتبغض عليهم ، وهذا الهجاء سياسي ، إذ الكميت كان يتشيع لأهل البيت ، ونرى الأخطل في المقابل يمدح بني أمية ويهجو غيرهم بقوله:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصرؤا
أفحمت عنكم بني النجار قد علمت عليا معذ ، وكانوا طالما هذروا⁽⁹⁾

كانت النقائض بين الفرزدق والجرير لونا بارزا من الألوان العصبية القبلية ، يقول الفرزدق مفتخرا بقبيلته هاجيا جرير وقومه:

لنا العزة القعساء والعدد الذي عليه إذا عدّ الحصى بتخلف
ولاعزّ إلا عزّتنا قاهر له ويسألنا النصف الذليل فينصف
إذا هبط الناس المحصب من منى عشية يوم النحر من حيث عرفوا
ترى الناس وماسرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
فإنك إن تسعى لشدرك دارما لأنك المعقّى يا جرير المكلف⁽¹⁰⁾

نرى الفرزدق يدعى لقبيلته دارم العزة العظمى التي تقهرها كلّ عزة ، وأن جميع القبائل تسير خلف قبيلته ، فجرير وقبيلته متعبة تكلف نفسها ما لا تطيق لضعفها وقلة عددها، وكلّ ذلك قبلية جاهلية. ونرى جرير أيضا يفتخر بقبيلته ثم يهجو الفرزدق بقوله:

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول
أعدت للشعراء سماء ناقعا فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمي وضعا البعيث جدعت أنف الأخطل
إني انصبت من السماء عليكم حتى احتطفتك يا فرزدق من عل
وافخر بضبة إن أملك منهم ليس ابن ضبة بالمعم المخول
وامدح سيرة بني تميم إنهم قتلوا أباك وثأره لم يقتل⁽¹¹⁾

يعتبر هذا الفخر والهجاء تعصبا قبليا ، فالصفات التي يفتخر بها جرير هي التي كان يفتخر بها الفرزدق فقد نفى كل واحد منهما عن الآخر الكرم وعلو المنزل فأصبحا أسفل السافلين فهما كاليهود والنصارى في قوله تعالى: (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) سورة البقرة 113. فقد تفاذفا في الهاوية.

البارودي في سطور:

نشأته وحياته:

البارودي هو محمود سامي البارودي من كبار الشعراء في العالم العربي والإسلامي، ولد سنة 1838م في القاهرة، وقد ذاق مرارة اليتيم ، إذ توفي والده وهو في سابعة من عمره ، وقد اعتنت به

والدته رغم الظروف الصعبة التي كانت تحيط بهما ، تعلم البارودي القرآن و العربية و الإسلامية على أيدي المعلمين الذين جلبتهم أمته لتأديبه، وفي سنة 1850م التحق بالمدرسة الحربية ، تخرج فيها برتبة ضابط و هو في سادسة عشرة من عمره، وقد حال بينه وبين تحقيق بطوليته وأمجاده مثل والده ظروف الجيش المصري بعد عهد محمد علي ، وكان متألماً بذلك الركود، وكان طموحه الهائل يدفعه إلى إيجاد الحل لتحسين مستقبله ، فستمر عن ساق الجد في خوض معركة تحصيل العلم والثقافة، فأكتب على قراءة الشعر القديم وخاصة شعر الحماسة والفخر ووصف ميدان القتال وأعمال الأبطال، فرأى أن الشعر عامل أساسي لتكوين حياته ، فحرص على حفظ الجيد منها وتدوينه، وكانت ملكته الشعرية وتأثره بالشعراء الذين قرأ عنهم في صباه تدفعه إلى إقتحام قرض الشعر فقلّد فحول الشعراء، واتصل بكثير من عاصريهم. (12)

جاز البارودي مرحلتين هامتين في حياته ، فالأولى انضمامه إلى صفوف الجيوش المقاتلة في جزيرة كريت بيلقان التي كان يرسلها حاكم مصر اسماعيل باشا لمساعدة الخليفة العثماني آنذاك . والثانية مشاركته في ثورة الجيش ضدّ ضباط الأتراك في مصر ثمّ ضدّ الإستعمار الإنجليزي الذي احتلّ مصر سنة 1882م ، وكان في هذه الفترة وزير الحرب ثمّ رئيس الوزراء، وفي عام 1883م تمكن الإنجليز من إلقاء القبض عليه ونفيه إلى جزيرة سرنديب ، فعاش فيها سبعة عشر عاماً، عاد بعد ذلك إلى وطنه عام 1900م بموجب عفو عنه، ثمّ وافته المنية بمصر بعد بأربع سنوات - رحمة الله عليه - (13)

تولى البارودي مناصب رفيعة ، فقد ارتقى إلى رتبة (قائم مقام) في الجيش لما عاد إليه أيام اسماعيل باشا، وكان مستشاراً وأمين سرّه ، كما تولى وزارة الحربية ثمّ رئيس الوزراء. (14)

كان البارودي شاعراً عظيماً ترك للأمة العربية والإسلامية نتاجاً أدبياً جيّداً استنار به الدارسون والباحثون وغيرهم ، ومن أبرز إنتاجاته الأدبية : ديوانه وقصائده المتفرقة التي منها قصيدته: قلدت جيد المعالي حلية الغزل. مطلعها:

قلدت جيد المعالي حلية الغزل وقلت في الجدّ ما أغنى عن اله (15)

التهجاء الشخصي والاجتماعي:

ولاعجب أن يكون البارودي شاعراً متمكناً من الشعر الهجائي وخاصة الشخصي والاجتماعي لثقافته الواسعة وقراءته العميقة وتأثره البالغ بالشعراء المجددين من الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، وقد

تمكن البارودي من تطوير فن الهجاء من التعصب القبلي إلى الهجاء الشخصي والاجتماعي لاستنكار التصرفات السيئة التي يرتكب بها بعض الأفراد أو المجموعة في المجتمع ، لقصد إرشادهم وتغيير سلوكهم . وفي هذا الموضوع ندرس بعض القصائد التي قالها البارودي للهجاء الشخصي والاجتماعي كما يلي

الهجاء الاجتماعي:

أ- هجاء معاشره :

جو النص:

دعت البارودي التصرفات السيئة التي كانت تمارسها مجموعة من معاشره إلى هجاءهم لأنه كان يرى فيهم النفاق والظلم والغدر، ولعل كان يرى أنّ هجاءهم شفاء لهذا الداء الخبيث ، فالشعر الهجائي أشد وقعا من السهم لأنه يكشف السوء ويعلن عنه ويجعل مرتكبه في ضيق وحرَج شديد كأنما يصعد في السماء ، لا يحب الله من يجهر بالسوء إلا من ظلم . ويعتبر هذا الهجاء استنكارا للتصرفات والأخلاق للذمومة وتغييرها ، وفي الحديث ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، فذلك أضعف الإيمان" رواه مسلم ⁽¹⁶⁾ ، لم يكن البارودي يقصد قبيلة ولا شخصا معينا بل مجموعة في المجتمع ، ولهذا نراه يصف زمانه بالغدر لأنه يحوى الغادرين .

النص:

أنا في زمان غادر ومعاشر	يتلوّنون تلون الحرياء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب	منهم وإخوة محضر ورخاء
أقبح بهم قوما بلوت إخوانهم	فبلوت أقبح ذمة وأخاء
قد أصبحوا للدهر سبة ناقم	في كل مصدر محنة وبلاء
وأشد ما يلقي الفتى في دهره	فقد الكرام وصحبة اللؤماء ⁽¹⁷⁾

اللغة:

الكلمة : معناها.

غادر : خائن.

الحرياء : سحلة تتلون تحت الشمس.

ذمة : الأمان والحزبة.

ناقم : طاعن .

المعنى العام :

نقل إلينا الباروديّ أحوال مجموعة في المجتمع الذي كان يعيش فيه نقلا كركاتوريا المسرحية حيث يتصوّر أنّ زملاءه ورفقائه على شكل الحرباء تعبيرا عن سرعة تغيرهم وكثرة غدرهم وخيانتهم حتى أصبحوا شنائم الدهر ومصادر محن وبلايا، لأنّه جرّهم فوجدهم لازمة لهم، وأنّ أشدّ بلاء أن يعيش المرء مع هؤلاء اللؤماء.

تحيل الباروديّ أنّ الزمان شخص غادر وذلك لكثرة الغدر والخيانة فيه على أسلوب المجاز العقليّ، كما تحيل زملاءه حرباءات لسرعة غدرهم وكثرة نفاقهم وخيانتهم التي لا يسلم منها الغني ولا الفقير.

استعمل الباروديّ عاطفة الهجاء للاستنكار تلك الأخلاق السيئة بأسلوب أدبيّ وبألفاظ سهلة واضحة ، وتصوير دقيق مؤثر يضع أمام القارئ مشهدا يتفاعل معه وشعور بتلك التصرفات، وقد اختار للموضوع ألفاظا مناسبة له مثل : الغدر ، أقبح ، سبّة ناقم ، محنة ، بلاء ، لوم .

وقفه بلاغية:

استعمل الباروديّ الصور البلاغية لبثّ فكرته الهجائية، منها المجاز العقليّ في قوله : (أنا في زمان غادر) الزمان لا يغدر بل من في الزمان ، وفي قوله : (أعداء غيب) وليس للغيب أعداء بل من يخفي العداوة ، وفي قوله : (أصبحوا للدهر سبّة ناقم) وليس للدهر سبّة ناقم بل من فيه، ونجده أيضا يستعمل التشبيه البليغ في قوله: (ومعاشر يتلّونون تلّون الحرباء) والمشبّه فاعل يتلّونون ، والمشبّه به تلّون الحرباء، والأداة ووجه الشبه محذوفان ، تقديرهما : كتلّون الحرباء غدرا وتسترا .

ب- هجاء الثوّار الفاشلين:

جوّ النص:

نظم الشعب المصري ثورة ضدّ الحاكم الجائر، وكان الباروديّ مشاركا فيها ولكن زملاؤه هربوا عن مواجهة الحكومة وكان هذا الفرار فشلا ظريعا أثر في نفسه، حتى بلغ إلى حدّ أن يهجوهم هجاء يتبعهم ليكون درسا لهم وإرشادا لغيرهم.

النص:

فتبّا لهم من معشر ليس فيهم رشيد ولا منهم خليل يصادق
ظننت بهم خيرا فأبت بحسرة لها شحن بين الجوانح لاص
هم عرضوني للقتل ثمّ اعرضوا سراعا ولم يطرق من الشر طارق
فكم أبقي من غير طارد وكم واقف تلقاه والعقل آبق
إذا بصروا شخصا يقولون جحفل وجبن الفتي سيف لعينه بارق
أسود لذى الأبيات بين نسائهم ولكنهم عند الهياج نقانق⁽¹⁸⁾

اللغة:

الكلمة : معناها:

أبت : ميت . الحسرة : التلهف ، الندامة.

شحن : الحزن ، الهموم.

نقانق : النعائم

المعنى العام:

تحدث البارودي عن الثورة التي نظمها مع مجموعة من الشعب المصريّ ضد الحاكم الجائر، وكان يظنهم من بدايتها المجدّين والصادقين فيما يقولونه من صمود ووحدّة واعتصام حتى التصر، ولكن فوجيء البارودي بدهشة وخيبة الأمل حينما رآهم يفرون كأن الأسود الجائعة تطاردهم ، وذلك بعد ما جروه إلى الثورة والقتال ، ومن جنبهم الشديد ترى الواقف منهم أشدّ فرارا ، فالجبن والخوف حليفهم ، يظنون كلّ صيحة عليهم ، فإذا رءوا شخصا من مكان بعيد يقولون جيش قادم إليهم فيهربون

من غير طارد، فهم أشداء في منازلهم وبين نسائهم، جنباء في ساحة الثورة والقتال، ليس لهم خليل، فويل لهم بما كسبت أيديهم فويل لهم بما يكذبون.

ملامح بلاغية:

استعمل الشاعر الأساليب البلاغية لشرح فكرته الهجائية، نراه يتناول الإنشاء الطلبي الدعائي في قوله: (فتبأ لهم....) واسلوب الجناس الناقص في قوله: (عرضوني . اعرضوا) والتشبيه البليغ في قوله: (إذا بصروا شخصا يقولون جحفل) ، حيث يتخيلون شخصا جيشا كثيفا يتدفق إليهم، وفي قوله (جبن الفتى سيف لعينه بارق) حيث شبه الجبن الذي يسبب الختف لصاحبه بالسيف الذي يقتل به، إذ الجبان إذا حمل سيفاً فقد أعرض نفسه للقتال وفي النهاية يقتل أو يهرب، وفي قوله: (أسود الأبيات بين نسائهم وفي القتال نقانق) تراهم بين نسائهم كأسود يشددون ويغلظون ولكنهم في خارج المنزل أوعند مواجهة العدو تراهم كنعمائم ألتى لا تعرف إلا الحرب.

ج- الهجاء الشخصي:

أبتلي البارودي بثلاثة أشخاص ابتلاء شديدا، كان ينال منهم إذا حينا بعد حين، ولم يجد بدا إلا هجاءهم ليكون ذلك معولا لهدم تصرفاتهم السيئة وليكون عبرة لغيرهم، وهم:

1/ رياض باشا الذي واشاه لدى توفيق بن اسماعيل، لميوله الشعبية حتى أخرجه من الوزارة، وقد ولع البارودي ولوعا شديدا إلى هجائه هجاء لا ذعما يكشف ما كان يخفيه من التصرفات السيئة ضدّه وضدّ الشعب.

2/ جارتة وأولادها المشاغبون ألتى تبدأ تشويشها على البارودي وتشغيبه من غروب الشمس إلى الضحى لليوم التالي، فصرخاتها كدوي صواريخ الحرب العالمية الأولى، وجلباتها في بيئها جلبات قطار السكك الحديدية بين سلاسل الجبال.

3/ أحد أصحابه الذي يراه البارودي أنه لا يستحقّ الصحبة لسوء أخلاقه ألتى كالمائدة الفاسدة، فأقبح خصال لدى الناس أحسنه لديه، حتى لو صوّر من طبعه تراه عقربا راصدا يتصبب السمّ من إبرته. (19)

وبسبب تصرفاتهم وسوء أخلاقهم هجا البارودي كل واحد منهم بقصيدة ندرسها واحدة تلو أخرى ليكون مثلاً للآخرين .

د- هجاؤه على رياض باشا:

جو النص :

كان البرودي مولعاً بالحرية والميول الشعبي ، والثورة ضدّ الحاكم الجائر، وكان يرى أن رياض بشا يقف عليه بالمرصاد ليعبده عن الحركة الوطنية ، ويسدّ عنه طريقها، فهو عدو للشعب يسعى للاستبداد والظلم، فقد وشا رياض البارودي لدى توفيق بن اسماعيل خيدوي مصر حتى طرده من الوزارة، فتألم البارودي بهذا التصرف السيء الذي تصرف به رياض باشا ضدّه وضدّ الشعب من غير ذنب إرتكبه، ولهذا هجاه البارودي، ومن أهاجيه لرياض باشا قوله:

إن ملكاً فيه رياض وزير	لمباح للخائنين وبل
أهوج أحمصق شتيم لقيم	أغتم أبله زنيم عتل
صغرت رأسه وأفرط في الطو	ل شواه وعنقه فهو صعل
أبرزت قدرة الطبيعة فيه	شكل لوم إن كان للوم شكل
كن كما شئت يا رياض وما شا	ئت رجال فأنت للوم أهل
ليس تغني الألقاب عن كرم الأص	ل فمجد الفتى عفاف وعقل
أنت من عنصر لو أتكا الدّر	ر عليه لآده منه حمل
نازعتك اليهود واختلفت في	ك النصارى فأنت لاشك بغل ⁽²⁰⁾

اللغة:

الكلمة: : معناها:

البل : المباح ومن قول العباس بن عبد المطلب في زمزم لأجلها لمغتسل وهي لشارب حلّ وبل⁽²¹⁾.

أهوج : طويل وفيه تسرع وحمق.

أغتم : الذي لا يفصح الكلام أى في لسانه عجمة.

أبله : الغي.

- زنيـم : المستلحق في قوم لبس منهم لا يحتاج إليه.
- عتل : غليظ ، جاف. قال تعالى (عتلّ بعد ذ لك زنيـم)
- صـبـل : دقيق الرأس والعنق.
- الذرة : حبة في منتهى الصغر. قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) الزلزلة 7-8.
- لآده : آده الحمل : أثقله ، آده في أود من باب قال فهو (مؤد) بوزن مَقُول.

المعنى العام:

هجا البارودي رياض باشا بهذه القصيدة يبين فيها أنّه يتصف بالخيانة والغدر وأن أية حكومة فيها رياض تصبح محلا للخونة الذين يحللون الحرام ، ويحرمون الحلال ويسعون في الأرض فسادا، فرياض متسرع لحمقه ولؤمه فلا يعرف له أصل فهو غليظ جافي لا ينطق بالفصاحة، فهو دقيق الرأس والعنق يثقل عليه أقلّ حمل ، مذبذب تتنازع عليه اليهودية والنصرانية فهو كالبغل ليس يحمل فينسب إلى العرب ولا بحمار فيضاف إلى عزيز.

للبارودي مهارة أدبية ألتى مكّنه من صياغة تلك الظروف التى عايشها مشهدا محسوسا يقوم بدور فقال لتربية المجتمع، ورسم المنهج الجديد للهجاء.

وقفه بلاغية :

استعمل البارودي بعض الأساليب البلاغية منها أساليب الخبر الإبتدائي مثل قوله: (ليس تغنى الألقاب عن كرم الأصل ...) والخبر الإنكاري المؤكد بتأكيدات كقوله: (إنّ ملكا فيه رياض وزير لمباح للخائنين وبلّ) وأسلوب الإنشاء الطليّ للتهكم والسخرية ، كقوله : (كن كما شئت فأنت للؤم أهل)

ومن الأساليب البلاغية التى استعملها البارودي التشبيه البليغ فى قوله : (فأنت لا شك بغل)، ونرى فى قوله : أهوج ، أحرق ، أغتم ، أهله ، زنيـم ، عتل أخبار لمبتدآت محذوفة نفهم منها التشبيه البليغ والتقدير: هو أهوج ، هو أحرق إلخ أى هو كأهوج ، كأحرق

هـ- هجأؤه على جارتها وأولادها :

جؤ النص:

أبتلي البارودي بجارة فوضاوية كثيرة الشغب والضوضاء لانتحبت نيراتها ولا تتوقف جلباتها من غروب الشمس إلى أن تحين صلاة الضحى، وقد طبخت أولادها طبيخها فصاروا مكثري التشاجر، أصواتهم صوارخ تملأ الجو ضجيجا أشد من صوت طائرة "كُنْكَوُود" عند إقلاعها، كان البارودي يتضايق بهذه الظاهرة السيئة التي كانت تمتد إلى الآخرين من الجيران، ومن حقّه أن يردّ هذا الظلم بقلمه الناطق عن لسانه، ومن السّنة إزالة المنكر باللسان وذلك من قوة الإيمان، وإذا عوقبتم فعوقبوا بمثل ما عوقبتم به، وقد وصلت ظاهرة الشغب والفوضى إلى تفزع الناس والحيوانات حتى خرجت رجال الحي ليلا حيملون عصيهم وفؤوسهم، وبعضهم يتلون آيات التعوذ والأدعية المأثورة، ترى النساء في خوف شديد يتجولن أمام بيوتهن مثل الهائم يظن أن الجيش الأجنبي هاجمهم بغتتا.

النص:

إلى الله أشكو طول ليلي وجارة	تبست إلى وقت الصباح بإعوال
لها صبية لا بارك الله فيهم	قباح النواصي لا ينمن على حال
صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى	من الشر في البيت من الخير ممحال
ترى بينهم - يافرق الله بينهم -	لهيب صيُاح يصمد الفلك العال
كانهم مما تنازعن أكلب	طرقن على حين المساء يرثبال
فهن جميعا هيجة فرعت لها	كلاب القرى ما بين سهل وأجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة	من الحي إلا جاء بالعم والنخال
وفرعت الأنعام والخيول فا نبرت	تجاوب بعضا في رغاء وتصاهل
فقامت رجال الحي تحسب أنها	أصابت بحيش ذي غوارب ذيال
فمن حامل رحا ومن غابض عصا	ومن فرع يتلو الكتاب يا هلال
ومن صبية ريعت لذ لك ونسوة	هوائم دون الباب يهتفن بالوالي
فيارب هب لي من لدنك نصيرا	على ما أ قاسيه وخذهم بزلزال ⁽²²⁾

اللغة :

الكلمة	معناها
خباج النواصي	: قبيح الوجوه
رئبال	: الذئائب.
هيجة	: كثير الاضطراب والتحرك من حمقه .
أجبال	: جمع الجبل على غير القياس، والقياس جبال.
رغاء	: صوت البغل والغنم.
ريعت	: إجمعت.

المعنى العام:

صور البارودي حالة إجتماعية سيئة عايشها في إحدى أحياء القاهرة حيث كان يجاور بامرأة فوضاوية كثيرة الشغب، وكان أولادها يصرخون ويتشاجرون بأصوات مرتفعة، ضجيجها كصواريخ مدافع الحرب العالمية الأولى، وكانت تستمر صرخاتهم من بداية غروب الشمس إلى أن تحرق أشعة الضحى أطمار الدمن، وقد وصلت شدة ضجيجهم إلى تفزع وتخويف أهل الحي ليلاً فخرجوا يحملون العصي والفؤوس ظانين أن الجيش الأجنبي هاجمهم بغتاً، وكان بعضهم يقرءون سوراً وآيات التعوذ خوفاً الشديداً، وكانت الكلاب تعول وتحرب خوفاً كأن الذئب تطاردها، وترى النسوة يتجولن فرعاً كمن ضلّ عن الطريق، ومن أجل هذه التصرفات السيئة التي جرت الناس إلى تلك المتاعب في الليل أخذ البارودي سلاحه الأدبي ليهجو تلك الجارة وأولادها بهذه القصيدة لعلها ستطفيء نيران صوارخ أصواتها فيعود الحي إلى الهدوء ويكتسب السكان راحتهم من جديد. وفي نهاية القصيدة نرى البارودي متضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى أن يمكنه من الصبر وتحمل تلك الظروف القاسية.

ظهرت مهارة البارودي الأدبية في قدرته وتمكنه من نقل تلك الظاهرة إلينا بشكل واضح وبعيد بأسلوب أدبي وبلاغتي يجعلنا نشاكره ونستنكر تلك التصرفات السيئة التي عاش بها، فالقصيدة مع بعد

الزمن والمكان بنسبة إلينا جديدة ورائعة نتفاءل معها.

ملاحم بلاغية:

استعمل البارودي الأساليب البلاغية لتحقيق أهدافه وعاطفته الهجائية ، منها الإنشاء الطلي الذي أخرجه عن أصله إلى الدعاء والإيجاز بحذف المنادى في قوله (يا فرق الله بينهم) وتنزيل غير العاقل منزلة العاقل في قوله (فلم يبق من كلب عقور وكلبة من الحي [إلا جاء بالعم والخال]) ومنها الجاز بالإستعارة في قوله : (صوارخ لا يهدأن لإمع الضحى) حيث استخدم الصوارخ لأصواتهم المرتفعة ، وفي قوله : (لهيب صياح يصعد الفلك العالى) إضافة اللمهيب إلى الصياح مجاز ، ويقال أنه شبه الصيحة بالنار ثم حذفها ورمز لها بشيء من لوزمه وهو لهيب على سبيل الاستعارة المكنية تعبيرا عن شدة نزاعهم وتشاجرهم، ونجده يورد التشبيه المرسل في قوله (كأثم مما يتنازعن أكلب طرقن على حين المساء برئبال) حيث شبههم بأكلب يتنازعون على ميتة عند غروب الشمس فإذا ذئائب يهاجمون عليهم فينتشرون صائحين .

و- هجاؤه لأحد أصحابه:

جزء النص:

كان للبارودي صاحب يوصف بالثهم والجشع؛ يتصرف بتصرفات يستنكرها كل ذى طبع سليم، وقد وصل لؤمه إلى حد كآته عقرب راصد ، فأسوء خلق عند الناس أحسنه لديه . كان البارودي كما يبدو متضررا بتصرفات صاحبه التي تدعوه إلى هجائه بهذا الأسلوب الذي يكشف ويعلن عن أخلاقه التي يمارسها فيقول له قولا بليغا لعله يتذكر أو يخشى .

النص:

وأصاحب لا كان من صاحب	أخلاقه كالمعدة الفاسده
أقبح ما فى الناس من خصلة	أحسن ما فى نفسه الجامده
ولو أنه صوّر من طبعه	كان لعمري عقربا راصده
يصلح للصفح لكيلا يرى	فى عدد الناس بلا فائده

يلب البطل والكاتب	يهدم فى قاعدته المائدة
يراقب الصحن على غفلة	من أهله كما لهره الصائده

كأ نما أظفوره منجل وبين فكيه رحي راعده
 كأ نما البطة في حلقه نعامة في سبب شارده
 تسمع للبلع نقيقا كما نقت ضفا دع ليلة راكده
 كأ نما أنفاسه حرجف وبين جنبه لظي واقده⁽²³⁾

اللغة:

الكلمة : معناها
 الصفع : الضرب بالكف على البدن أو القفا.
 يهدم : يفتي
 منجل : مطعن.
 رحي : طاحن.
 سبب : ماء سائل.
 نقيق : صوت الضفدع أو الدجاجة.

المعنى العام:

يهجو البارودي بهذه القصيدة شخصا كان يعاشره، هو يخلق بأخلاق مكروهة ويتصرف بالتصرفات السيئة التي يصفها البارودي بالمعدة الفاسدة، لأن فسادها فساد الجسم برقته، وقد وصل سوء خلق الرجل إلى حد إذا صور طبعه خرج عقربا راصدا، ترا الرجل نحيفا ولكنه أكل يترقب الطعام على غفلة أهله ليقتطفه لقمة واحدة فهو كهرة تصتاد الفأرة، تراه يتناول اللقمة إثر اللقمة بتتابع بأصابعه التي كالمنجل، تسمع صوت اللقمة حين يبلعه كأصوات الضفادع، وتراها تمر في الحلقوم كنعامة يجزها سيل سريع في المجرى الضيق، وهو يتنفس بأنفاس عالية مثل أنفاس العداء الذي يجري على ميدان المسابقة.

إستطاع البرودي بمهارته الأدبية وحياله الواسعة أن يجسد تصرفات صاحبه وأخلاقه السيئة بأسلوب ممتع غايته الإرشاد والتوجيه.

وقفه بلاغية:

إستخدم البارودي صورا بلاغية لتعبير عن عاطفته المحيائية الإستنكارية للتوجيه والإرشاد للتنقيص والإحباط، منها: أساليب الخبر وأغراضه كالذم في قوله: (أقبح ما في الناس من خصلة أحسن ما في نفسه الجامدة) إذ خرج الخبر عن أصل الإفادة إلى الذم ويغلب هذا الأسلوب في القصيدة لكونها هجائية، ومن الصور البلاغية: التشبيه البليغ في قوله: (ولو أنه صور من طبعه كان لعمرى عقربا راصدا) أى خرج طبعه كالعقرب في اللؤم، واستعمل المجاز المرسل في قوله: (يهدم في نعلته المائدة) حيث ذكر المائدة وأراد الحال عليها وهو الطعام، والعلاقة محلية والقرينة: (يهدم) بمعنى يفتي. كما نجد التشبيه المرسل في قوله: (أخلاقه كالمعدة الفاسدة) في كثرة الضرر، وفي قوله: (يراقب الصحن..... كاهرة الصائدة) في التستر والمراوغة، وقوله (كأنما أظفوره منجل) شبه أصابعه بالمنجل في الحد وأخذ كمية كبيرة، وفي قوله: (كأنما البطة في حلقة نعامة في سبب شاردة) استعمال البطة للكمة مجازا ثم شبهها بنعامة يجرها السيل الشديدة السير، ويفهم من قوله: (في حلقة نعامة في سبب شاردة) التشبيه البليغ حيث شبه حلقة بمجرى السيل، وشبه صوت لقماته أثناء مرورها في حلقة بأصوات ضفادع وسط ليلة هادئة، في قوله: (تسمع للبلع نقيقا) كما نقت ضفادع ليلة راكدة، وفي قوله: (كأنما أنفاسه حرجف) التشبيه المرسل، حيث شبه شدة تنفس صاحبه أثناء تناول الطعام بالحرجف في الارتفاع.

الختامة:

قدمت هذه المقالة رؤية أن البارودي سلك في فن الهجاء منهجا جديدا يختلف عن المنهج القديم لما قبله، فالهجاء لديه هو استنكار الأخلاق الفاسدة والتصرفات السيئة التي تصدر من أفراد أو جموعة من الشعب، والبارودي شاعر مفلق أدرك ما في الشعر من الوقعة والجرحه التي لا تلتئم كما تنم جراحة السيف، وأن للشعر تأثيرا بالغا وخاصة من يتذوق به من القراء أو المستمعين فيجدون في سهم الليل إلى التعامل معه فيستنكرون ما استنكروه أو يؤيدون ما أيده. وقد ابتكر البارودي فن هجاء اجتماعي والشخصي بالأسلوب الذي يختلف تماما عن الأسلوب القديم لدى الشعراء الذين إذ هجأهم كان عصبيا وقبليا وكانوا يصنادون عيوبها يلحقونها على المهجورين وهم يريثون، وقد رأينا الخطيئة يهجو الزبرقان وقومه ويرمى إليهم عيوبها وهم بعيدون عنها، ورأينا أيضا ما كان

يجرى بين الفرزدق وبين جرير من الأهاجي المقذعة التي أهدافها ظلم وتكبر، وأما البارودي فلم يكن هجاؤه قبلًا أو عصبيًا بل كان لاستنكار العيوب التي يرتكبها أشخاص أو مجموعة تحدث ضررًا خاصًا أو عامًا، وهذا مانراه في أهاجيه على الثوار أو رياض باشا الذي وشاه على توفيق بن اسماعيل حتى أبعد من الوزارة، وهجاؤه على تلك الجارة المصاحبة وأولادها الفوضائيون، كلها كانت لاستنكار الظلم والخيانة والتصرف السيء.

وقد أظهر البارودي شخصيته الشعرية وخبرته الأدبية في تصوير تصرفات أولئك الأشخاص والأفراد بأسلوب جيد مؤثر لهدف الإصلاح والتهذيب، ولا ننكر أن البارودي قد بالغ في بعض أهاجيه مثل قوله في هجاء معاشريه: (قد أصبحوا للدهر سبة نافم في كل مصدر محنة وبلاء) ومثل قوله على جارته وأولاده: (فيا رب هب لي من لدنك تصيرًا على ما أقاسيه ونحذهم بزلزال) وغير ذلك.

الهوامش والمراجع:

- 1- عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الفكر، 1951م. ص 279.
- 2- بن منظور: لسان العرب، الجزء التاسع، دار الحديث، القاهرة. 1423هـ/2003م. ص. 45.
- 3- عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، المرجع السابق ص. 281.
- 4- الأستاذ أحمد بن أمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1409هـ/1988م ص. 39.
- 5- المملكة العربية السعودية، وزارة المعارف، الأدب والنصوص، الطبعة الثانية 1979م، ص 163.
- 6- المرجع نفسه، ص. 164.
- 7- المملكة العربية، المرجع السابق، ص. 141.
- 8- الدكتور شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثامنة، دار المعارف، غير مؤرخ، الجزء الثاني، ص. 179.
- 9- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، غير مؤرخ، الجزء الأول، ص. 29.
- 10- المملكة العربية السعودية المرجع السابق، ص 242-243.
- 11- المملكة العربية السعودية المرجع نفسه، ص 235-236.
- 12- عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص. 212.
- 13- المرجع نفسه، ص. 225.
- 14- المرجع نفسه، ص. 215.
- 15- شبكة إنترنت، موقع أدب (adab.com).
- 16- الإمام النووي، متن الأربعين النووي، الطبعة الأولى، 1423هـ ، ص. 56.
- 17- عمر الدسوقي، المرجع السابق، الجزء الأول، ص. 280.
- 18- المرجع نفسه، ص. 268.
- 19- المرجع نفسه، ص. 282.

- 20- المرجع نفسه، ص. 281
- 21- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مطبعة مصطفى الثاني الحلبي وأولاده بمصر 1369هـ 1950م، ص 78 .
- 22- عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص 280-281.
- 23- المرجع نفسه، ص 258-259.